**المحاضرة الثانية:**

**الشعر الحديث ولغة الكتابة الإبداعية**

تمثل اللغة نشاطا رمزيا "يعبر عن بقية الأشكال الرمزية المختلفة للثقافة؛ إنها الوسيلة المثلى الحاملة للمعنى، والدلالة عن هذه اللغة تخضع دائما لصراع قوى التقليد والتجديد، وتمثل في جميع الثقافات[...] قوة محافظة في المثاقفة الإنسانية؛ لأن من دون طابعها المحافظ هذا لا تستطيع أن تؤدي وظيفتها التواصلية"[[1]](#footnote-2)(1). وتتميز بخاصيتها الازدواجية التي تشير إلى انبنائها على مستويين أساسيين: أولهما: المستوى التركيبي، ويتضمن العناصر ذات المعنى التي تترابط معا لتؤلف الجمل في السياق الكلامي، وثانيهما المستوى الصوتي وتتضمن الأصوات والمنطوقات، فضلا عن خاصية التحول اللغوي؛ الذي يشير إلى قدرة الإنسان على استخدام اللغة للتعبير عن الأشياء والأحداث عبر الأزمنة والأمكنة المختلفة[[2]](#footnote-3)(2).

أمّا خاصية الانتقال اللغوي فتشير إلى "عملية انتقال اللغة من جيل إلى آخر؛ إذ تكتسب وفق عمليات الارتقاء اللغوي، وتتطور لدى الأفراد طرائق التعبير اللغوي وتركيب الجمل وإدراك المعاني وفق تسلسل منظم، وهناك خاصية الإبداعية اللغوية؛ فاللغة نظام مفتوح يتيح للأفراد إنتاج عدد غير محدد من الجمل والتراكيب اللغوية والإبداع في مجال استخدام اللغة، للتعبير عن الفكر والمشاعر والاتجاهات والمعتقدات والأشياء"[[3]](#footnote-4)(3).

ويركز تشومسكي في معرض آرائه اللسانية على ما سماه بالكفاية اللغوية؛ القائمة مفهومًا على "معرفة حدسية تتمثل في وجود قواعد واضحة ومنتظمة في الذهن، بشكل فطري تعطي للذات المتكلمة قابلية إنجاز ملفوظات في لغتها الأم كما في لغات أخرى، أما الإنجاز فهو التحقق المجسد لهذه الكفاءة الكونية؛ من خلال ملفوظات في لغة معينة"[[4]](#footnote-5)(1) دالة على حيوية هذا النظام ونشاطه.

وتستند هذه الكفاية في نطاقها الآدائي على "قدرات الشخص اللغوية، ويمثل هذا المفهوم في الواقع العوامل اللغوية الصرفة؛ التي تتداخل في أفعال الكلام أو الآداء اللغوي"[[5]](#footnote-6)(2)، وهذا ينطبق على الاستعمالات اللغوية العادية في حدودها الإفهامية؛ فالإنسان عطفا على هذا الرأي يستعمل "اللغة لتنظيم تصرفاته الخاصة، كما يستعملها أيضا لوصف عالمه الداخلي؛ الذي يتكون من ظواهر ما تزال غير مصنفة تصنيفا حسنا ولا محددة تحديدا دقيقا، هذه الظواهر التي تصفها التعابير التقليدية مثل الإحساسات والمشاعر والأفكار والصور العقلية"[[6]](#footnote-7)(3).

هو النظر إذًا إلى اللغة بوصفها نشاطا للكائن الإنساني وحقيقة اجتماعية، و"ملكة ترتكز على قوة الطاقة الكامنة في الذات الإنسانية، وحين تتحدد قواعدها نظاما واستعمالا تصير نتاجا جمعيا على مستوى الأمة الواحدة"[[7]](#footnote-8)(4)، فهي احتكاما إلى هذا الرأي وسيلة تلفت الانتباه إلى ما تشير إليه، وتضطلع بأداء وظيفة تواصلية أساسيـة ضمن المؤسسة الاجتماعية الواحدة، كما توفر للمـرء إمكانيـة التعبير عن أحاسيسه ومشاعره[[8]](#footnote-9)(5).

لكن ماذا لو خرجت اللغة عن حدود استعمالاتها العادية؟ متجاوزة إياها إلى مستوى آخر موصول بالإبداع الفني؟ وما علاقة هذا بالانزياح بملكة التذوق لدى المبدع؟

يتمتع الأدب "بامتياز فريد بين الفعاليات الإشارية الأخرى واللغة بالنسبة إليه هي المبدأ والمعاد، هي نقطة انطلاقه ونقطة وصوله على السواء، اللغة تضفي عليه صيغتها المجردة كما تضفي عليه مادتها المحسوسة [...] ومن هنا فإن الأدب ليس مجرد الحقل الأول الذي يمكن دراسته ابتداءً من اللغة؛ بل إنه الحقل الذي يمكن لمعرفته أن تسلط ضوءا جديدا على خواص اللغة نفسها"[[9]](#footnote-10)(1)، بوصفها خبرة تحقق للمتكلم كينونته، بما تملكه من طاقة استيعابية، فتخرج من المستوى التخاطبي إلى المستوى الجمالي.

والنص المكتوب بامتلاكه تلك الطاقة يحدد إنتاجه وتلقيه من جهة، ويتميز بانغلاقه الشكلي (بداية ونهاية) من جهة أخرى، إنه توسيع بهذا المعنى للجملة، والفضاء النصي الموجود بين حدوده الشكلية يجعله مبنيا إلى فقرات وأجزاء ووحدات قابلة للتجزيء[[10]](#footnote-11)(2) بما له من امتدادات داخلية ماثلة في بعده الخطي، وأخرى ذات امتدادات خارجية واقعية وإيديولوجية، تغدو فيها اللغة وقواعدها محل اهتمام المؤسسات الاجتماعية والتربوية والثقافية، وبالنسبة للغة العربية "فإنها، على الرغم مما عرفته من تطور وتحوير بابتعادها عن محيطها اللغوي الأول جغرافيا، والذي مسّ بنيتها الصوتية والتركيبة والمعجمية، باختلاف المناطق التي تتحدث العربية في التواصل اليومي؛ فإنها مع ذلك ظلت قواعدها وضوابطها وقيمها الكتابية مهيمنة ومستمرة"[[11]](#footnote-12)(3). وبالنظر إلى البعد الخطي في النص؛ نجد الكلمات تتوالى في الجملة على نحو منتظم، يخضع ترتيبها لأنساق تركيبية مطّردة، وعلامات داخلية معقدة تشكل في مجموعها قواعد التركيب النحوي في لغة ما، ومعنى الجملة ليس مجموع معاني الكلمات المفردة التي ترد فيها؛ إذ إن التغيير في البنية النحوية وعلاقات الكلمات ووظائفها ومواقعها من الترتيب من شأنه أن يبدل في المعنى[[12]](#footnote-13)(4).

إن توظيف اللغة في مجال الكتابة الإبداعية لا يتعارض والحركية التي تطبع سلوك النص وقدرته على تحقيق مرجعياته، وتوسيع مجال انتمائه وطرح مسألة استقلاليته من عدمها هو، في نهاية المطاف، محاولةً لجس نبض نصوص لها جمالياتها القابعة في نظام لغتها، وطرائق صوغها وبنائها، ويضبط توظيفَ اللغة فيها سياقٌ نحوي يمثل، في معنى من معانيه، شبكة علاقات تحكم بناء الوحدات اللغوية داخل النص، وفيها تقوم كل علاقة بمهمة وظيفية تساعد على بيان الدلالة[[13]](#footnote-14)(1).

لذا، تتحول اللغة في الخطاب الأدبي بوصفه ملفوظا منظورا إليه من جهة التواصل إلى وسيلة لبعث النضال من أجل الأرض قبل أن تكون غاية في حدّ ذاتها، وهذه رؤيا أدبية أساسها الالتزام بقضية الوطن الجريح تفكيرا وإبداعا وممارسة، صارت فيه اللغة واسطة بين مواضيع شتى يلم جزئياتها النص. وهذا فهمٌ "تكون مهمته استعادة اللغة التي يقفز عليها الرمز، أثناء محاولته التوسط بين عالم النص الذي هو بيئته، وعالم الذات الذي يمثل بالنسبة إليه الشرط الوجودي للعودة إلى التمثلات الأصلية في عالم ما قبل النص"[[14]](#footnote-15)(2)، ومحاولةً لاختراق وضعيات تشكل مفاهيمه قبل ولادته المستعصية.

من هنا نخلص إلى أن تلقي اللغة وتذوقها وتحولها في حاضر الخطاب الأدبي إلى ممارسة إبداعية يمكن استيعابها في حاضر الكتابة بواسطة طريق اللغة؛ بما هي انعكاس على مساحة النص الورقية لتزيده سعة في معانيه وخصوصية في أسلوبه، واكتساب الفرد المبدع للغة تمهيد لعلاقة تربط نظامها بطرائق استعمالاتها، بشكل يظهر ما حبا الله - عز وجل- الإنسان به من ملكات، فإذا الكلمات جمل و الجمل فقرات والفقرات نص والنص إبداع من نوع آخر

1. (1) الزواوي بغورة: الفلسفة واللغة، ط01، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيوت، لبنان، 2005، ص81. [↑](#footnote-ref-2)
2. (2) ينظر: رافع النصير الزغلول، عماد عبد الرحيم الزغلول: علم النفس المعرفي، ص252. [↑](#footnote-ref-3)
3. (3) المرجع نفسه، ص252. [↑](#footnote-ref-4)
4. (1) عبد الواحد المرابط: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ط01، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2010، ص48. [↑](#footnote-ref-5)
5. (2) مارك ريشل: اكتساب اللغة، تر: كمال بكدش، ط01،المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لبنان، 1984، ص14. [↑](#footnote-ref-6)
6. (3) المرجع نفسه، ص189. [↑](#footnote-ref-7)
7. (4) عبد القادر عبد الجليل: الأسلوبية وثلاثية الدوائر العروضية، ط01، دار صفاء، عمان، الأردن، 2002، ص195. [↑](#footnote-ref-8)
8. (5) -André Martinet: Eléments de linguistique générale, Armand colin, Paris, 4éme édition,. 2eme tirage, 1988, p9 [↑](#footnote-ref-9)
9. (1) تزيفيتان تودوروف: اللغة والخطاب الأدبي، تر: سعيد الغانمي، ط01، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993، ص42. [↑](#footnote-ref-10)
10. (2) ينظر: سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي(النص والقارئ)، ص25. [↑](#footnote-ref-11)
11. (3) المرجع السابق نفسه، ص134. [↑](#footnote-ref-12)
12. (4) ينظر: ممدوح عبد الرحمن الرمالي: العربية والوظائف النحوية، د/ ط، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1996، ص220. [↑](#footnote-ref-13)
13. (1) ينظر: عبد القادر عبد الجليل: الأسلوبية وثلاثية الدوائر العروضية، ص218. [↑](#footnote-ref-14)
14. (2) عمارة ناصر: اللغة والتأويل، ص35. [↑](#footnote-ref-15)